مثالب الوزيرين

تأليف : أبو حيان التوحيدي
تحقيق : الدكتور ابراهيم الكيلاني
نشر : دار الفكر ـ دمشق

نقد : محمد جبار المعيبد

الى عهد قريب جدا ، وكتاب (مثالب الوزيرين) مفقود لا تعرف له نسخة مخطوطة ، غير المقتطفات التي حفظها لنا ياقوت الحموي في كتابه (ارشاد الاريب) وابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) . ومن الطريف أن ابن خلكان (٤/١٩٧) وصف هذا الكتاب بأنه « من الكتب المحذورة ، ما ملكه أحد الا وانعكست أحواله ، ولقد جربت ذلك وجربه غيري على ما أخبرني من أثق به ... » .

وعلى الرغم من كل هذا النحس الذي ألصق بهذا الكتاب ، وما لاقاه مؤلفه من مرارة العيش واحراقه معظم كتبه في حياته ، فان كتاب (مثالب الوزيرين) بقي محفوظا في مكتبة أسعد أفندي باستانبول في تركيا . وهذه المرة لم يعد النحس على مقتنيها أو محققها ، وانما عاد على الكتاب نفسه ، كما سنتبين فيما بعد .

والكتاب تحفة أدبية رائعة ، من أدب السخرية والهجاء في النثر العربي ، الذي خلا من هذا النوع من الفنون الادبية . وقد سبق الجاحظ التوحيدي الى هذا النوع في رسالته (التربيع والتدوير) على الرغم من اختلاف منهج الكتابين . فقد كان الجاحظ ساخرا يصور بسخريته خصمه في صور مضحكة خالية من الالفاظ والعبارات النابية المكشوفة ، كالتي وصف بها التوحيدي خصميه ابن العميد والصاحب بن عباد . ولعل الحقد الكبير تجاه هذين الوزيرين أعماه فكتب ما كتب ، وأودع كتابه ـ كما يقول ـ « نفسه الغزير ولفظه الطويل والقصير » .

وفي الامتاع والمؤانسة (١/٥٤) يذكر التوحيدي كتاب (المثالب) في حديث له مع الوزير ابن سعدان (المتوفي ٣٧٥هـ) ، فيقول « على أني عملت

رسالة في أخلاقه (الصاحب) وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي الغزير ولفظي الطويل والقصير ، وهي في المسودة ولا جسارة لي على تحريرها ، فان جانبه مهيب ، ولمكره دبيب ... قال (أي ابن سعدان) : دع هذا كله وانسخ لي الرسالة من المسودة ولا يمنعك ذاك فان العين لا ترمقها والاذن لا تسمعها واليد لا تنسخها .. »

وهذا النص مهم يجيب عن كثير من الاسئلة ، خصوصا اذا أضفنا اليه نصا آخر من المثالب (ص ٢٠٧) يقول فيه « وجرت أشياء أخر ، كان عقباها أنني فارقت بابه (أي الصاحب) سنة سبعين وثلثمائة راجعا الى مدينة السلام ، بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحدا ... »

اذن فمفارقة التوحيدي للصاحب كانت سنة ٣٧٠هـ ، لازمه فيها ثلاث سنوات ، بدأت بسنة ٣٦٧هـ . وكتبت الرسالة ـ المثالب ـ بين سنة رجوعه الى بغداد (٣٧٠هـ) وسنة كتابة الامتاع والمؤانسة (٣٧٤هـ) . ولكنه لم يظهرها الى الناس بل أبقاها مسودة ولا جسارة له على تحريرها ، لان الصاحب كان لا يزال حيا . والظاهر انها لم تعرف ولم تنسخ الا بعد وفاة الصاحب سنة ٣٨٥هـ ، وان كان قد نسخ منها نسخة لابن سعدان كما عرفنا .

بقي أن نعرف لمن الفت الرسالة ؟ .. الرسالة نفسها لا تفصح عن شيء من هذا ، ولا حتى كتبه الاخرى . ولكن نصا في المثالب (ص ٧) يظهر أن الكتاب الف بطلب من أحدهم . يقول فيه « وهذه الجملة ـ أكرمك الله ـ أنت أحوجتني اليها ، وجشمتني صعبها ، حتى تشبثت بها قائما وقاعدا ، وتقلبت في حافاتها مختارا ومضطرا ، وتصرفت في فنونها محسنا ومسيئا لما تابعت الي من كتاب بعد كتاب ، تطالبني في جميعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما ممن أدركته في عصري من هؤلاء منذ سنة خمسين وثلاثمائة الى هذه الغاية ، وزعمت أني قد خبرت هذين الرجلين من غمار الباقين ، ووقفت على شأنهما ، واستبنت دخائلهما ، وعرفت خوافي أحوالهما وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما . ولعمري قد كان أكثر ذاك اما بالمشاهدة والصحبة ، واما بالسماع والرواية من البطانة والحاشية والندماء ... »

وان نحن بحثنا عمن صحب التوحيدي من الوزراء وغيرهم خلال عامي ٣٧٠ ـ ٣٧٤هـ لانجد غير ابن سعدان الوزير ، كما لانظن أن التوحيدي يجرأ على ذم الصاحب في حياته أمام أحد ، الا اذا أمن جانبه . والمعروف أن ابن سعدان كان من خصوم الصاحب ، ولعل التوحيدي أمن جانبه فكتب له (المثالب) بطلب منه .

وقد شك الدكتور عبدالرزاق محيي الدين في رسالته (أبو حيان

التوحيدي)(1) ــ قبل العثور على : مثالب الوزيرين ــ ، شك (أن يكون المقصود بـ (ابن العميد) الاستاذ الرئيس أبو الفضل محمد بن العميد ، وتهيأ لي أن المعني أو المذموم في الرسالة هو ولده أبو الفتح علي ابن ابي الفضل ابن العميد ، وهذا قد ولي الوزارة بعد أبيه وقبل ابن عباد ··) · وقد عدد أسبابا منها : أن أبا حيان لم يقصد أبا الفضل أيام وزارته ولا اتصل به في رجاء أو أمل ·· » · الا أن رسالة المثالب تؤكد على هذه الصحبة ، ونص سابق ذكرناه يذكر أنه صحب ابن العميد والصاحب منذ سنة ٣٥٠هـ ، بالاضافة الى ذكره ولد ابن العميد ، وهو : أبو الفتح علي ابن أبي الفضل بن العميد ·

· · ·

ذكرت ما ذكرت ، وأطلت في الحديث عن زمن كتابة الرسالة ولمن كتبت ، ·· ذكرت كل هذا لخلو مقدمة المحقق الدكتور ابراهيم الكيلاني من كل ما يمت الى الرسالة بصلة ·

ففي مقدمته (١١ صفحة) لا يذكر غير ترجمة لأبي حيان ، لا يستند فيها الى أي مصدر قديم أو حديث ، كما لا يحقق أي جانب مهم من الجوانب الخفية التي تتصل من قريب أو بعيد بحياة التوحيدي أو مؤلفاته أو الرسالة التي يقوم بتحقيقها · أما الذي يشكر عليه المحقق فهو تقديمه نصا جديدا من نصوص أبي حيان المفقودة تضاف الى تراثنا العربي ، على الرغم من أن هذا التقديم لا يمت الى النشر أو التحقيق العلمي بصلة ·

والكتاب طبع عن نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة أسعد أفندي في استانبول ، عثر عليها المستشرق (مارك بيرجه) فصورها وأهداها الى الاستاذ المحقق · وقد أهمل الاستاذ في مقدمته وصف هذه النسخة ، وزمن نسخها وناسخها ، ووصف المجموعة التي كانت الرسالة ضمنها · أما عن طريقة التحقيق ، فهو يقول « كانت عنايتنا موجهة الى النص ·· » ، والواقع أن النص قد أهمل اهمالا واضحا والاخطاء لا تخلو منها أي صفحة من صفحات الكتاب ·

وشيء آخر نذكره ، قبل مناقشة المحقق لما في الكتاب من اخطاء ، هو أن كتاب (المثالب) قد حفظت لنا منه نصوص تقرب من نصف الكتاب منتشرة في ارشاد الاريب لياقوت الحموي في ترجمة : الصاحب ابن عباد وابي الفضل ابن العميد ، وابنه ابي الفتح ابن العميد ، وكذلك بعض النصوص في وفيات الاعيان لابن خلكان في ترجمة : ابن العميد · وهذه النصوص الكثيرة تحتم على المحقق أن يتخذها أصلا يقارن به نصوص نسخته الوحيدة ، ويذكر الفروق بين النصين · الا أنه ــ رغم علمه بهذه النصوص ــ لم يشر اليها الا اشارات خاطفة ، وكأنه قد كلف بهذا العمل أو اجبر عليه ·

ونستطيع أن نجمل ملاحظاتنا على هذا الكتاب في النقاط الآتية :(٢)

١ ـ عدم عنايته بالنص :

والامانة العلمية ، عند نشر النصوص ، تقتضي من المحقق خبرة بالنص ودراسة له قبل أن يقدم على نشره ، وهذه الخبرة والدراسة ، على ما يبدو ، لا يملكهما المحقق ٠

(١) ففي ص ٦٩ (ولي معك ان شاء الله نهار له ذيل ٠٠) وهو تصحيف ، والصحيح (نهار له ليل) ـ أنظر ارشاد الاريب ٢/٢٨٣ ٠

(٢) وفي ص ٧٩ (وقل ما شئت ، وانصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف ٠٠) والصحيح (وابصر ما أردت) ، لأن المعنى يقتضيه ٠ ولو أراد (انصر) لقال (وانصر من أردت ٠٠) ٠

(٣) في ص ٨٠ (وكان أبو الفضل ، اعني ابن العميد ، اذا رآه يقول : أحسبوا أن عينيه ركبتا من زئبق ٠٠) والصحيح (أحسب أن عينيه ٠٠٠) ٠

(٤) في ص ٨٥ (ثم حذف به الي وقال : ٠٠) والصحيح (حذف) بالذال ، أي رمى ٠

(٥) في ص ٩١ (قال : هذا مذهب حسن ، ومن هذا الذي يأبى الضيم طائعا ويركب الهون سامعا ؟) والصحيح (يأتي الضيم ٠٠) والمعنى يقتضيه ٠

(٦) في ص ١٥٧ (قال أحمد بن الطيب : فاستطرفت ذلك وعجبت منه وسألت المخبر عن انصراف قويرى أي شيء كان سببه ؟ فاجابني بأن لا أعلم ٠ فكتب الى ابن ثوابة ٠٠٠) والصحيح (فكتبت) أنظر : الارشاد ٢/٤٥ ٠

(٧) في ص ١٦٠ (فقلت : ما غضبكم لنصراني يشرك بالله ويتحداه من دونه الانداد ٠٠٠) والصحيح (ويتخذ من دونه الانداد ٠٠) بدليل ما جاء بعد ذلك (فقلت له : ان صديقا لي جاءني بنصراني يتخذ الانداد ٠٠) ٠

(٨) وفي نفس الصفحة (فأتاني برجل قصير ، دحداح ، مجدور ، آدم ، أخنس العينين ٠٠٠) والصحيح (أخفش العينين ٠٠) أي : ضعيف البصر ٠ والطريف أن المحقق وضع لـ (اخنس) هامشا وفسره بأنه : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الارنبة ٠٠) مع أن النص يقول : أخنس العينين ، وليس : أخنس الانف ٠٠

(٩) في ص ١٦٢ (٠٠ اياي تستهويني أم حسبتني ممن يهتـر لمكايدكم ٠٠٠) ، والصحيح (يهتز لمكايدكم ٠٠) ٠

(١٠) في ص ١٩٨ ـ ١٩٩ (فكلامنا حسن وبليغ ، وقد أخذ من الجرأة حظا وافرا ومن البيان نصيبا ظاهرا ٠٠٠) والصحيح (من الجزالة حظا وافرا ٠٠٠) ، خصوصا وهو يصف كلاما ـ انظر : الارشاد ٢٩٦/٢ ٠

(١١) في ص ٢٣٢ (٠٠ حتى حضره وسمع كلامه وعرف فضله واستبان سعته ٠٠) ، والصحيح (واستبان سعيه ٠٠) ـ الارشاد ٢٨١/١ ٠

(١٢) في ص ٢٤٨ (٠٠٠ متوجها الى اصفهان ومزلة ورامين فجاوزها الى قرية مجاورة ٠٠) ، والصحيح (ومنزلة ورامين ٠٠) ـ الارشاد ٢٨٨/٢ ٠

(١٣) في ص ٢٦٢ (قال : اكتب الابيات وارفعها الى ينجاح ـ وكان خازن كتبه ـ ثم قال ٠٠) والصحيح (الى نجاح ـ وكان خازن كتبه) ٠

٢ ـ عدم العناية بضبط الاعلام :

أما أسماء الاعلام الواردة في الكتاب ، فما هي الا فوضى من الاسماء ، اليك بعضها :

(١) ص ٨٤ (الجرفادقاني) : والصحيح (الجرباذقاني) نسبة الى (جرباذقان) وهو اسم لبلدتين في فارس ـ أنظر : الانساب المتفقة ١٨٤ ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا ٩٩) ٠

(٢) في ص ٢٤٨ (النويهار) بالياء ، والصحيح (النوبهار) بالباء ٠

(٣) في ص ١٦ يقول التوحيدي[٣] (ولقد رأيت الجرجرائي في عداد الوزراء وجلة الرؤساء ، وانما قتله ابن بقية لأنه نغم له بالوزارة ٠)٠ وقد ترجم المحقق لـ (الجرجرائي) في الهامش بأنه : محمد بن الفضل الجرجرائي ، تولى الوزارة للمتوكل توفي سنة ٢٥٠هـ ، والصحيح أن المراد بـ (الجرجرائي) هو : محمد بن أحمد الجرجرائي المتوفى سنة ٣٦٣هـ ، اذ لا علاقة للجرجرائي الاول بابن بقية ، خاصة وان أكثر من قرن يفصل بينهما (أنظر : تجارب الامم ٣٢١/٢) ٠

(٤) في ص ٣٢٢ ، ذكر التوحيدي نصا عن (النوشجاني) نفهم منه أنه معاصر للمأمون ، والنص هو : (هذا ثمامة المتكلم يحكي بلسانه وهو صاحب المأمون ، قال : دخل النوشجاني على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين ٠٠٠) بينما ذكره في كتبه الاخرى على أنه من اصحابه ٠ ففي الامتاع والمؤانسة ١٤/٢ في احدى محاوراته (٠٠ وها هنا من يتفلسف وهو يهودي ، كأبي الخير ابن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم كأبي سليمان والنوشجاني وغيرهم ٠٠٠) ، وفي المقابسات ذكره في عدد من الصفحات ، منها ص ٢٧٣ (٠٠ فلما خرجنا من بين

يديه قال لي النوشجاني : أراد ان اشكاله ۰۰۰) وقد ذكر السندوبي انه لم يعثر له على ترجمة ٠

(٥) في ص ۲۳۷ (ولهذا قال ابن أبي النبات ۰۰۰) وقد صحف اسمه في ص ۲۸۲ الى (ابن ابي السباب) ، وورد مرة ثالثة ص ۲۷۹ باسم (عبدالرزاق بن الحسين أبو محمد بن ابي السباب) فما كان من المحقق الا أن وضع كلا من الاسماء الثلاثة في فهرس الاعلام منفصلة وكأنها أسماء لثلاثة أعلام ٠ وقد سماه ابن خلكان ۱۹۲/۲ (أبا محمد عبدالرزاق بن الحسن المعروف بابن السياب البغدادي اللغوي المنطقي ۰۰۰) ولم يشر المحقق الى هذا الاختلاف مع اشارته الى كتاب ابن خلكان ٠

(٦) وظاهرة الخلط بين الاسماء فاشية في نصوص الكتاب ، فالعلم الذي يرد اسمه مرتين أو ثلاث في الكتاب بتقديم وتأخير في كنيته أو لقبه ، فانه يوضع في فهرس الاعلام منفصلا مرتين أو ثلاث أيضا ، فمثلا :

أبو المسلم (الشاعر) ٠

(أبو المسلم) نجبة بن علي ٠

نجبة بن علي (أبو المسلم) ٠

ورد هذا العلم بهذا الشكل في نصوص الكتاب ، وقد وضع المحقق هذه الاسماء في ثلاثة أماكن من فهرس الاعلام ، وكذلك :

ابن نباتة وعبدالعزيز بن نباتة ٠٠

ابن شاذان وأبو الحسن بن شاذان ٠

الحسن البصري وأبو سعيد الحسن بن ابي الحسن ٠

الابهري وأبو سعيد الابهري ٠

سليمان بن علي وسليمان بن الهاشمي ٠

(٧) أما ترجمة الاعلام في هوامش الكتاب ، فعناية المحقق تقوم على المشهور منهم ، وترك ما يتطلبه البحث من رجوع الى المصادر وكتب الرجال ٠ فهو يترجم — مثلا — للمهلب بن ابي صفرة ولبيد بن ربيعة وابن بقية ومسكويه والفارابي ، ويترك : البديهي (أنظر : اليتيمة ٣٤٣/٣ والمقابسات — الفهرس) وابن جلبسات الشاعر (أنظر : الامتاع والمؤانسة ١٣٥/١ واليتيمة ٢٧٠/٢) وجعل البصري (انظر : المنتظم ١٠١/٧) ۰۰۰ وغيرهم من أصحاب ابي حيان الذين تردد ذكرهم في كتبه الاخرى كالامتاع والمؤانسة والمقابسات والصداقة والصديق وغيرها ٠

٣ ـ تخريج الشعر :

والكتاب امتلأ بشعر كثير للصاحب وابن العميد ولكثير من شعراء القرن الرابع الهجري المعاصرين للتوحيدي · ولم يحاول المحقق مراجعة هذا الشعر في مصادره كـ (يتيمة الدهر) للثعالبي و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، وكتب الطبقات التي تترجم لهؤلاء وتروي أشعارهم ، كما لم يحاول ، في كثير من الاحيان ، مراجعة دواوين الشعراء المطبوعة ومقابلتها بنصوص الكتاب · ومنشد الشعر ، بالنسبة له ، هو قائله · ففي ص ٧٦ (قال : انشدنا علي بن سليمان الاخفش لشاعر ··) نسب الابيات في فهرس القوافي الى الاخفش ، كما ان بعض الابيات كتبت نثرا (ص ٦١) ·

ويبدو ، أيضا ، أن الآيات القرآنية يصعب التعرف عليها ، فيشير المحقق الى بعضها دون ذكر رقم الآية ، والبعض الآخر يهمله (أنظر : ص ١٥٩ ، ٦٩) · والتوحيدي كذلك يأتي بكثير من أحاديث الصاحب بن عباد وابن العميد ، ثم يعلق عليها بسخرية ومرارة · ولم يلتفت المحقق الى هذا ، بل خلط كلام الوزيرين بالتعليق الذي بعده (ص ٨٦) ·

والفهارس ، لا أظن المحقق صنعها ، بل أؤكد أن أحدا ـ ربما تلاميذه ـ قام بصنعها ، والا اتهمناه بالجهل ·

وأخيرا : ثم نذكر كل ما ذكرناه ، الا لعلمنا أن الذي قام بالتحقيق (دكتور) له صحبة طويلة مع أبي حيان من تحقيق وتأليف(٤) ، ونود منه ، في المستقبل ، أن يتثبت من موقع قدمه حينما يقدم على تحقيق كتاب من تراثنا العربي ·

●

تعليقات في الهامش

(١) أبو حيان التوحيدي ، سيرته ـ آثاره ص١٩٢ · مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٤٩ ·

(٢) تعرض الدكتور مصطفى جواد لنقد كتاب (مثالب الوزيرين) في مجلة (المكتبة) البغدادية العدد (٣٥ ـ ٣٦) ١٩٦٣ ، وقد استبعدنا ما استدركه الدكتور جواد على الكتاب من مؤاخذات ·

(٣) ناقش الدكتور جواد المحقق حول (الجرجرائي) ، ولكنه لم يعين المراد في المثالب ، واكتفى بأن (الجرجرائية) ليست نسبة لانسان واحد بعينه ·

(٤) للدكتور ابراهيم الكيلاني ، محقق (المثالب) كتاب بعنوان (أبو حيان التوحيدي) كما حقق رسائل للتوحيدي ، والصداقة والصديق له أيضا ·